شعر المعتمد بن عباد

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —

ولد فى مهاد الملك ، وعاش أميراً فملكا ، لم تدفعه الحاجة إلى الارتزاق بشعره ، وإنما كان كالعصفور الغرِّيد ، يتغنى شعوراً بالحياة ، فيشفى ، وتهيجه آيات الجمال ، فيصدح ، لا يضطر إلى أن أن يلبس عواطفه غير لبوسها .

وقد رأى والده فيه بادرة هذا النبوغ ، فشجعه على أن يقرض الشعر ، وعرف الابن فى أبيه حبه للشعر ، فاتخذه فى رسائله إليه : يمدحه آنا ، ويستطفه حيناً ، ويستنفر إليه مرة ، ويطلب منه بعض أنعامه تارة أخرى كما سنرى علماً منه بما للشعر من تأثير فى نفس والده ، وبأنه جدير أن يبلغ به ما يريد .

وأغرم المعتمد بالشعر ، حتى إنه ليفضل أن يكتبه فى رقعة الدعوة إذا دعا ، ويستجيز الشعراء ، ويطلب إليهم أن يكملوا ما بدأ ، وكثيراً ما كان يرسل إلى وزرائه ، وندمائه ، وشعرائه رسائل بالشعر بدل منثور الكلام .

— ٢ —

وكان شعره صورة للحياة التى عاشها فى عهد الإمارة والملك ، حياة الترف والجلال معاً ، تراها ممثلة فى قوله :

وقد شربت الراح يسطع نورها ... والليل قد مد الظلام رداءه
حتى تبدى البدر فى جوزائه ... ملكا تناهى بهجة وبهاءه
لما أراد تنزها فى غربه ... جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم بحفه ... لألاؤها ، فاستكمل الآلاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله ... رفعت لواءها عليه لواء
وحكيته فى الأرض بين مواكب ... وكواعب جمعت سنا وسناء
إن نشرت تلك الفروع حنادسا ... ملأت لناهذى الكئوس ضياء
وإذا تثنت هذه فى روضة ... لم تأل تلك على الترنك فناء

فيالله كما ترى بين راح يسطع نورها فى ظلمة الليل ، تحت أضواء بدر يملأ الكون بهاء وبهجة ، تحف به النجوم المتلألئة كما تحف الرعية بمليكها . وهنا يعقد موازنة بين نفسه فى الأرض والبدر فى السماء ، فهو فى ملكه بين مواكب من الجند ، أو بين كواعب أتراب ، يصدحن بأعذب الموسيقى ، وأروع الغناء .

وملهاة أخرى كانت أثيرة لديه ، تلك هى ملهاة الصيد ؛ يطلب من والده حيناً أن يأذن له بساعة ينفقها فيه ، ويرى فى ذلك منة من والده عليه ، وحيناً يرسل إلى أبيه يحدثه عن ساعة قضاها فى الصيد والقنص .

وكان لبعض الأحداث السياسية صداها فى شعره ، ولعل من أعظم تلك الأحداث استيلاءه على قرطبة ، وهو حادث ملأ نفسه زهواً ، وربما أفعم قلبه بالأمل ، فى أن يوحد الأندلس العربية تحت رايته ، ويقيم فى البلاد دولة بنى عباد . ولا جرم فقد كانت قرطبة عاصمة الأندلس كلها ، يوم كان الحكم العربى مزدهراً بتلك الديار . ويبين المعتمد من هذا الزهو ، وذلك الأمل فى قوله :

من المملوك بشأن الأصيد البطل ... هيهات ، جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت ... من جاء يخطبها بالبيض والأسل
عرائس الملوك لنا فى قصرها عُرُس
كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا من قريب ، لا أبالكم ... هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ومن أعظم هذه الأحداث أيضاً تلك المعركة التى دارت رحاها يوم الزلاقة بين المعتمد بن عباد ، والمرابطين ، وأمراء الأندلس من ناحية ، وبين ألفونس السادس ملك إسبانيا المسيحية من ناحية أخرى ، وعرفت فى التاريخ بمعركة الزلاقة ، وقد تحدث عن صبره على أوار تلك المعركة . والمؤرخون يروون بلاءه فيها ، ويثنون على شجاعته واستبساله ، وسجل ذلك فى حديثه عن ابنه أبى هاشم ، وقد ذكره ورحى القتال دائرة ، إذ يقول :

أبا هاشم ، هشمتنى الشفار ... فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك ما بينها ... فلم يشفنى حبه للفرار

ويظهر أنه كان رقيق المعاملة لوزرائه وندمائه ، عظيم التواضع لهم ، كتب مرة إلى ذى الوزارتين أبى الوليد بن زيدون ؛ وكان المعتضد قد أمر أن يكون مجلس الوزير دون مجلس والده المعتمد :

أيها المنحط عنى مجلسا ... وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى ... أن ترى تحمل فوق الأرؤس

ولسنا لا نعجب أن يجيبه ابن زيدون فيصفه بأنه ملك مالك

بالبرق الأنفس .

كما كان يحب أن يأخذ الأمور بالرفق واللين ، ويدل على ذلك شعره الذى أرسل به إلى ابن عمار عقب رجوع هذا إلى أن يستأثر بمرسية :

متى تلقنى تلق الذى قد بلوته
صفوحاً من الجانى ، رءوفاً على الصحب

كان شعر المعتمد أميراً وملكاً يفيض بالبهجة ، ويضمر بالسرور ، حتى إذا ما قلب الدهر له ظهر المجن ، فهاجمه يوسف ابن تاشفين حليفه بالأمس ، انقلبت تلك الحياة الراضية حياة بؤس وشقاء . ولعل من أوائل الكوارث التى نزلت به وفاة والديه اللذين كانا على قرطبة ورندة عند ما أغار عليهما جيش يوسف ، وهنا يبدأ عهد المحنة ويفيض شعره الباكى الحزين ، حتى إذا تم أسره مضى الشعر يروى إحساساته الحزينة ، وآلامه الدفينة ، وذكرياته المؤلمة ، وخواطره القاتمة ، كما سنرى .

— ٣ —

كان الغزل أهم أغراض شعر المعتمد فى عهد الإمارة والملك ، وهو غزل حقيق تحدث فيه عن عواطفه فى حال الرضا والغضب والقرب والبعد ؛ وأظهر ما فيه أنه غير وقف على واحدة بل هن جوارٍ وزوجات عرفنا منهن جوهرة ، وسحر ، ووداد ، وأم الربيع ، وزوجه اعتماد ، يقول فى الأولى منهن :

سرورنا دونكمُ ناقص والطيب ، لا صاف ولا خالص
والسعد إن طالعنا نجمه وغبت فهو الآفل الناكص
سموك بالجوهر مظلومة مثلك لا يدركه غائص

ويقول فى الثانية :

عفا الله عن (سحر) على كل حالة ولا حوسبت عما بها أنا واجد
أسحرٌ ، خلت النفس واخترت فرقتى
فجمت أحزانى ، وهن شوارد
وكانت شجونى باقترابك تزدهى نهاهن لما أن نأيت شواهد

ويقول فى ثالثتهن :

اشرب الكأس فى وداد ودادك وتأنس بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك صرفاً ، وسكناه فى سواد فؤادك

ويقول فى أم الربيع :

تظن بنا أم الربيع سآمة ألا غفر الرحمن ذنباً تواقه
أأهجر ظبياً فى حلاوى كناسه وبدر تمام فى جفونى مطالعه
وروضة حسن أجتنيها وبارداً من الغاممٍ لم تحظر على شرائعه
إذاً عدمت كفى نوالا تفيضه على معتفيها أو عدواً تقارعه

أما زوجه اعتماد فيقول فيها :

بكرت تلوم ، وفى الفؤاد بلابل سفها ، وهل يثنى الحليم الجاهل
يا هذه ، كفى فإنى عاشق من لا يرد هواى عنها عاذل
حب اعتماد فى الحوانح ساكن لا القلب ضاق به ، ولا هو راحل
يا ظبية سلبت فؤاد محمد أوَلم يروعك الهزبر الباسل
من شك أنى هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل :
لون كسته صفرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل

وهذا الغزل الذى لا يقتصر على واحدة يدل على أن صاحبه مغرم بالجمال ، يعجب به أينما كان ، لا كهؤلاء المحبين الذين لا يرون الجمال إلا ممثلا فى واحدة . وليس حبه حباً عذرياً ، يقنع من الحب بالذكرى وطيف الخيال ، فلا ترى فى غزله صوفية ، ولكنه غزل دائم الحديث عن لذة المتعة بالجمال ، فتسمعه يقول :

الصبح قد مزق ثوب الدجى فمزق الهم بكفى مهما
خذ بلمها من ريقها خمرة فى لون خديها تجلى الأسى

ويخاطب من يحب قائلاً .

متى أداوى — يا فدا ك السمع منى والبصر
ما بفؤادى من جوى بما بفيك من خصر

ويقول :

وشادن أسأله قهوة فجاء بالقهوة والورد
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخد

حتى فى النوم عندما يزوره طيف من يهوى لا يقنع إلا بالحب الواصل ، ولا يرضيه إلا أن يظفر فى النوم بما كان يظفر به فى اليقظة ، فهو يرسل إلى من يحب رسالته منها :

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكأننا عانقتنى وشكوت ما
أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكأننى قبلت ثغرك والطلا والوجنتين ونلت منك مرادى

والمعتمد يسجل فى شعره ما ظفر به من متع حسية بالجمال ، ويحن إليها إذا نأى عنها ، وشعره فى الشوق إلى الجمال المفارق بارع قوى ، ومن ذلك ما كتب به إلى ابن عمار يذكر عهده

بشلب (إحدى مدن الأندلس) ولياليه السعيدة بها ، ومعاهد لهوه فيها ، فقال :

ألا حي أوطاني بشلب أبا بكر وسلمن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراحيب عن فتى
له أبدا شـــوق إلى ذلك القصر
منازل آســـاد وبيض نواعم
فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم صبحها بمخضبة الأرداف بجدية الخصر
وبيض وسمر فاعـــلات بمهجتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهواً قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم
فيا حسن ما انشق الكلام عن الزهر
وبانت تسقيني المدام بلحظها فمن كأسها حيناً وحيناً من الثغر

وأغلب الظن أن ميدان حبه كان جواريه وحظاياه ، وهؤلاء كن قريبات منه ؛ ولهذا لا تحس في شعره لوعة ولا حرمانا ، فهجر الجواري دلال ينتهي بوصل ، وخصام لا يلبث الصلح أن يعقبه ، والفراق إذا كان اليوم ، ففي غد اللقيا والوصال ، وهو حين يتغالى في التعبير عن أساه للهجر والفراق — مدلل لن يهواه ، وكثيراً ما صور لنا مداعبات جرت بينه وبين من يهوى . ولعل من أرقها تلك التي صورها وقد جرى بينه وبين جاريته جوهر عتاب فكتب إليها يسترضيها ، فأجابته برقعة لم تمنونها باسمها ، فقال :

لم تصفحي لي بعد ، وإلا فلم لم أر في عنوانها جوهره
درت بأني عاشـــق لاسمها فلم ترد للتيه أن تذكره
قالت : إذا أبصره ثانياً قبّلـه ، والله لا أبصره

* * *

وللمعتمد شعر بعث به إلى أبيه تلمس فيه ما كان يحمله الفتى الأمير لوالده من إكبار وإجلال ، فهو حيناً يمدحه إلى التفرد بالمجد والسيادة إذ يقول له :

ألا يا مليكا ظل في الخطب مفزعا وياواحداً قد فاق ذا الخلق أجمعا

وحيناً يرسل إليه يسأله بعض نعمه ، كما كتب إليه يطلب عجلا ، وحيناً يشكره على كثرة ما أولى وأنعم ، ومن ذلك أن أباه أرسل إليه فرساً أصدأ ، فكتب إليه المعتمد :

نوال جزيل يبهر الشكر والحمدا وصنع جميل يوجب النصح والودا
تفضلت بالطرف الذي لو أباعه بذلت ولم أضنن به البيشة الرغدا
جواد أتاني من جواد تطابقا فيا كرم المهدى ويا كرم المهدى
وكم من يد أوليت موقعها يد
لدي ، ولكن أين موضع ذا الأصدى
لعلي يوماً أن أوفي حقه فأنعله ممن عصى أمرك الحذا

فإذا ما غضب الوالد على الأمير وجد هذا من شعره وسيلة يستل بها هذا الغضب . ولعل أكبر قصيدة في الديوان تلك التي بعث إليه بها ، وقد خرج من عاقة منهزماً أمام باديس ، وقد تصرف في هذه القصيدة تصرفاً بارعاً ، فبدأها بالحديث إلى نفسه ، يطلب منها أن تهدأ وتستتر ، إذ لا فائدة في البكاء ، ولا خير يرجى من الحزن والألم ، ما دام القدر قد عاق عن بلوغ الأمل فيقول :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحذر

ثم ينتقل انتقالا طبيعياً إلى مدح والده مدحاً رائعاً قوياً بدأه بقوله :

سيدع يهب الآلاف مبتدئاً ويستقل عطاياه ويستتر

ويمزج المدح بالاعتذار إليه ، طالباً منه أن يبقى عليه ولا يوهنه فهو العدة في حوادث الدهر ، وهو الناب والظفر وقت الشدة ، ويظهر مما وصف به المعتمد نفسه ، معتذراً إلى والده حين يقول :

فالنفس جازعـــة ، والعين دامعة
والصوت منخفض ، والطرف منكسر
وزاد همي ما بالجسم من سقم وشيب رأسا ، ولم يبلغني الكبر
وذبت إلا ذماء في يمسكني أني عهدتك تمنو حين تقتدر

يظهر أن وقع الهزيمة كان شديداً على نفس أبيه ، وأكاد ألمح أن والده المعتضد قد أرجع سبب الهزيمة إلى انصراف ولده المعتمد إلى اللهو والغناء ، والخمر والنساء ، ومن أجل هذا بذل المعتمد جهداً كبيراً في أن يبرىء نفسه منها ، منحياً على قوم ذوي دغل ، لعلهم هم الذين نقلوا إلى أبيه أموراً لا ترضيه ، فقال المعتمد يتنصل :

لم أوت من زمني شيئاً أقل به فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر ولا سبى خلدي فنج ولا حور
ما تركي الخمر من عجز ولا ورع فلم يفارق لعمري سني الصغر
وإنما أنا ساع في رضاك فإن أخفقت فيه فلا يمسح لي العمر

(البقية في العدد القادم)

أحمد أحمد بدوي